الفصل السابع عشر

ديانة الشعوب البدائية في إفريقيا

دين الشعوب في جنوبي إفريقيا

إن الشعوب القاطنة في هذه البلاد هم شعب «البانتو» في الشرق وشعب «الهوتنتوت» في الغرب وشعب «البوشمن» في الوسط. أما «أقزام إفريقيا» فيعيشون في حوض نهر الكونغو وينتشرون في ناحية الشرق إلى أوغندة في غابات إيتوري.

إن آثار الروحية بارزة لدى هذه الشعوب والاعتقاد بالقوى الروحية من أسمى القيم لدى قبائل البانتو. وما الطقوس والشعائر لديها إلا وسائل تهدف كلها إلى غاية واحدة وهي تزويد الحياة البشرية بمدد من القوة وضمان بقائها إلى أطول مدة. فالمرض والألم والإعياء والفشل في العمل كل هذه الأعراض تدل على نقص تلك القوة. ويعترف الفرد من قبائل البانتو - إذا مات - أن القوة الروحية قد تحولت. وهذه القوة قد تتميز في أجزاء رئيسية من البدن كالعين والكبد والقلب والجمجمة مع مشاركة أعضاء الجسد فيها بدرجة أقل، وتبقى تلك القوى حتى لو فصلت عن الجسم مثل قلامة الظفر أو خصل الشعر حتى الأشياء التي يملكها الشخص ويستعملها باللمس تقتبس جانباً من قوته. وتظهر تلك القوة في كلامه وإيماءاته، وتعتقد قبيلة الزولو أن ظل الإنسان يغدو في النهاية عند موت الجسد «أتنجو» *Ittengo* أي روحاً. ويرى الزولو أنه إلى جانب العالم المحسوس يوجد عالم آخر هو عالم الأرواح، ويتصورون أن الأرواح تظل تحيا متصلة بعالم الجان. ويزداد اعتقادهم

بقدرتها الدائمة على إصابة الناس بالشرور - وتعرف القوى الحيوية لدى الأقزام باسم «مجبة» *Megebe* تربض في دكنة الظلام وتسير في الدم. فإذا مات الشخص انفصلت عنه وانتقل جزء منها إلى الطوطم ويتسرى الجزء الآخر مع أنفاس الأب المحتضر فيتلقاه ابنه البكر.

وتعتقد قبائل «الكيكويو» *Kikuyu* في كينيا أن لكل شخص نفسين تنفصل إحداهما عن الجسد لتنضم إلى أجدادها، والأخرى نفس جماعية وهي جزء من الأسرة التي تحل في جميع أجساد أعضائها بصفة مؤقتة إلى أن تحل فيما بعد في جسد أحدث مولود في الجماعة. وتعتقد قبائل «أوفيمبوندو» *Ovimbundu* في أنغولا البرتغالية أن أشباح الموتى تجتاح في الليل أزقة القرية في جلبة وصياح لتسرق الماشية والطيور ثم تختار لنفسها بيتاً فيكون ذلك نذيراً بمرض الساكنين فيه.

ويضاف إلى هذه الظاهرة الروحية المظاهر الطوطمية فتشاهد آثارها في غربي الكاميرون بتحريم أكل الخنزير والسلحفاة والفهد على الرجال، وتحريم لحوم الضأن والتيوس والقردة والسمك والأفاعي على النساء. ويعتقد الناس بأنه إذا انتهك شخص المحرمات تنزل به الكوارث كالمرض وسوء الغلة أو العقم في زوجاته وماشيته. ويزعم بعض الناس في غربي الكاميرون أنهم يقدرون على التقمص في صورة الحيوانات والتحالف معها، ومن الممكن أن يتحول الإنسان إلى فهد أو سلحفاة أو ثعبان. ويدعي الأقزام في منطقة الغابون أنهم ينتسبون إلى فيل يعتبرونه ملكاً على الحيوانات. ومما يدل على آثار الطوطمية أيضاً الاعتقاد بأن البشر نشؤوا من جذع شجرة أو من حيوان. ومن عادات قبائل الكيكويو في كينيا أنهم إذا قطعوا الأشجار لتمهيد الأرض للزراعة، تركوا شجرة سليمة بين مسافة وأخرى حتى تلجأ إليها النفس الساكنة في الأشجار المقطوعة بعد أن يقدموا لها الأضحيات ويتضرعوا إليها أن تترك مقرها وتنتقل إلى الأشجار التي لم تقطع. إن عادة الزواج من الخارج شائعة لدى الهوتنتوت، فإذا أراد أحدهم أن يتزوج اختار زوجته من العشيرة التي لا تنتمي أسرته إليها، أو من قبيلة غير قبيلته، ولدى البوشمن يختار الزوج زوجته من الجماعات المجاورة[1].

---

[1] هوبير ديشان: الديانات في إفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، ص 82.

الموت ومصير الميت

تعتقد قبائل السوازي في جنوبي إفريقيا أن الإنسان يتركب من جسد ونفس مترددة، ولا بد من تبجيل كليهما بعد الموت، ولاسيما إذا كان صاحبهما من الرؤساء، ولذلك تحفظ أجسادهم، وتوضع جثة الملك في كفن من جلد ثور أسود. والموت في نظرهم عرض من أعراض الضعف في أسرة الميت يضطر إلى مراعاة حداد طويل. وفي غربي الكاميرون يبقى الميت في مسكنه وعندما يتحلل جسده تنتزع جمجمته، إذ يزعمون أنها مقر الروح فتوضع في مسكن الأسرة أو تدفن على عمق قليل من سطح الأرض، وتحتفظ الأسرة بهذه الجماجم لاستشارتها في المرض وفي الشدائد، ويقدمون لها الشراب والطعام، ويقيم بعضهم بيوتاً في الغابات لتأوي إليها الأرواح التائهة. والمرء في هذه الشعوب يرى نفسه بين عاملين شديدين: عامل الرغبة القوية في الفوز بالقوى الحيوية التي كانت لآبائه والحاجة للاحتماء بها، وعامل الفزع من سخطها. لهذا حلت قبائل البانتو هذه المشكلة فأجمع رأيها على أكل لحم الميت ليلة مأتمه، ثم حرق عظامه. وبهذه الطريقة يفيدون من قواه الحيوية بإدماج لحمه في أجسادهم. وفي الوقت نفسه يضمنون استحالة عداواته لهم، ومن عادة البوشمن دفن الجثة قرب الكوخ بوضع النائم على جنبيه وتدفن جميع ممتلكات الميت معه، ثم ينتقلون من ذلك المحل ولا يعودون إليه قبل انقضاء عامين[1].

الآلهـــة

للهوتنتوت ثلاثة آلهة وهي «يوتكسو» *Utixo* و«تسوي جواب» *Tsui-Goab* و«هتسي إبيب» *Heitsi-Eibib*. وللبانتو في جنوبي إفريقيا إلهان وهما «موريمو» *Morimo* و«أنكولونكولو» *Unkulunkulu*، وزعم بعض العلماء أن تسوي جواب يمثل القمر، ولكن أنصار نظرية التأليه من العلماء يعتبرونه الكائن الأعلى للهوتنتوت. إن اعتقاد البوشمن بالكائن الأعلى ينجلي بوصفهم إياه بأوصاف تدل على مقامه كإله خالق السماء والنجوم والنور والحيوان ومنزل المطر ومطلق الصاعقة ولا يُرى... أما إله الهوتنتوت فيسكن السماء وهو أحد أبطالهم القدامى،

---

[1] المرجع السابق، ص 83.

جرح في ركبتيه في إحدى الحروب، يلقبونه بالرسول الأكبر، وله رسول بينهم يعرف باسم: «الساق» ولا يؤدون له فروض العبادة. ويعترف الأقزام بإله عظيم الشأن بعيد كل البعد عن الناس ولا يعنيه شيء يتقربون إليه ببواكير صيدهم وبسائر فاكهتهم. ولقبيلة «داماره» *Damara* في جنوبي إفريقيا إله خالق يسكن فيما وراء النجوم. وفي غربي الكاميرون يسمى الكائن الأعلى «نيامبي» اسمه شائع بلهجات مختلفة في إفريقيا الغربية والوسطى وخاصة في حوض الكونغو من هيريرو إلى الكاميرون، خلق الأرض، ولهذا ظن الناس أنه يعيش في باطنها إلى جانب الموتى، ويقول آخرون إنه يحيا في أعلى عليين وراء القمر أو فيما وراء طبقات السماء، ويزعمون أنه هبط إلى الأرض على نسيج العنكبوت حاملاً الرجل والمرأة ليسكنهما الأرض، وهو البصير ولا يستطيع أحد أن يصل إلى مقامه. وإذا ظهر الهلال رفع الداعي أكفه بالضراعة إليه قائلاً: «إني لست من عبادك الجشعين». ويعللون اعتزال إله السماء وابتعاده عن الناس بأنهم عصوه بقتل الحيوان وسرقة النار، ولما كان قادراً على كل شيء فهو مكتف بذاته لا يحتاج لأحد ولا يذكره الناس إلا قليلاً.

وتمثل بعض قبائل البانتو الكائن الأعلى في جنوبي إفريقيا بأكوام الحجارة المنتشرة على الطرق، وإذا مر «الزولو» بها رمى حجره فوقها تبركاً. والكائن الأعلى «تيلو» *Tilo* لدى قبائل البانتو الجنوبية يمثل السماء وهو الكائن السماوي المسيطر على الظاهرات الجوية: الغيث والصاعقة والرعد والبرق، وعند قبائل البانتو الشرقية في كينيا في منطقة البحيرات اسم الكائن الأعلى «مولونجو» *Mulungo* مسكنه السماء ويعتقد الناس بأنه ينزل المصائب عليهم: الجفاف والمجاعة والأوبئة، وهو المسيطر على الظواهر الجوية. لهذا حين يدمدم الرعد يقولون: «مولونجو يتكلم». ويعتقد أهل كينيا أن لهذا الإله أربعة عروش يقع أحدها على قمة جبل كينيا وهو قادر على كل شيء وحاضر في كل مكان، ولا يعبد إلا فيما ندر، ولكنهم يذكرونه كثيراً. وهناك آلهة ثانوية عند «البانتو» وقبائل جنوبي إفريقيا الأخرى، تعتبر في الأغلب آلهة صيد يُقدم إليها جزء من حيوان الصيد وتقدم الجمجمة قرباناً لها. ويزعم البوشمن أن النجوم والقمر آلهة عظيمة تمدهم بالصيد والمطر[1].

---

[1] المرجع السابق، ص 85-86.

دين الشعوب في إفريقيا الاستوائية

إن الغابات الاستوائية الإفريقية تقع في الناحية الغربية من إفريقيا وتغطي النباتات الضخمة الكثيفة الإقليم الذي تجري فيه روافد نهر الكونغو الشمالية وكذلك الإقليم الواقع حول الأجزاء السفلى لروافده الجنوبية، وتمتد محاذية لضفاف خليج غينيا حتى زامبيا. والقبائل التي تسكن هذه الغابات - ما عدا الأقزام- أهمها قبائل «بوشنجي» وقبائل «بولوكي» في حوض الكونغو، وقبائل «يوروبا» *Yoruba* وقبائل «أشانتي» *Ashanti* في غانا. إن سكان غانا زنوج حقيقيون، بينما سكان حوض الكونغو ينتمون في الأصل إلى البانتو والمناطق التي تغطيها الغابات مع عدد من الجماعات المستقلة كأشانتي وداهومي (بنين) ويوروبا.

اعتقاد هذه القبائل بالأرواح والموت

تعتقد قبائل أشانتي بأربعة عناصر روحية: الدم الذي ينتقل من الأم، ونفس تنحدر من الأب بعد موته، والنفس الإلهية تأتي من الإله وتعود إليه، والأخيرة نفس الطباع أو الشخصية الخلقية. وتزعم أن شخصية الصبي لا تتحقق إلا بعد بلوغه سن المراهقة. أما قبل ذلك فالأطفال لا ينتسبون إلى هذا العالم ولا يمكن أن ينسب إليهم خير أو شر. أما قبائل يوروبا فتميز ثلاث أنفس من بينها نفس تسمى نفس الطير، تفارق الجسد في النوم ويمكن اقتناصها بالسحر. أما قبيلة «الإيبو» التي تسكن المنطقة الواقعة شرقي قبائل يوروبا فتعتقد بأن للرجل قريناً يتتبع طبعه وخطه. وأما قبائل «إيوي» في جنوب توغو فتعتقد في نفسين هما: روح الحياة وروح الموت، تعرج الأولى إلى السماء وتهبط الأخرى إلى الأرض وراء نهر عريض، حيث منازل الموتى موطن الزمهرير والكآبة. وتعتقد قبائل «الفون» في داهومي (بنين) أن لكل كائن إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أربع أنفس: نفس شفافة، ونفس كثيفة، ونفس غير مرئية التي إذا انفصلت عن الجسد حدث الموت، ونفس كاملة وهي التي تحل في جسد آخر حينما يموت الإنسان. والنفس الشفافة لا تستيقظ في المرأة إلا بعد زواجها. أما الاعتقاد بالموت وعالم الموتى فيختلف باختلاف المناطق وتعتقد قبائل أشانتي أن روح الميت تذهب إلى بلد الأرواح الذي يشبه إلى حدّ ما عالم الأرض وتزعم قبائل «إيوي»

أن الموتى يعيشون في باطن الأرض أو في قرص الشمس وقد تتراءى أشباحها للأحياء، والذي يموت قبل أوانه (بفعل ساحر) يستطيع أن يتقمص جسد إنسان أو جسد حيوان. ومن المعتقدات الشائعة أن الأموات يظلون محافظين على مركزهم الاجتماعي الذي كانوا يتمتعون به في الحياة الدنيا. ولا بد أن يكون للعظماء عبيد وزوجات وأتباع كل حسب مركزه مما أدى إلى تقديم القرابين البشرية. وكان فيما مضى يذبح عدة أناس حين يموت الملك لكي يخدموه في عالم الأموات. مما يدل على عبادة الأجداد التي تتطلّب من الناس نحر الضحايا البشرية لأرواح السلف من الملوك. ويدفن الموتى في مكان يسمى غابة الأشباح، ثم تنحر شاة ويصب الخمر قرباناً للميت. وبعد الفراغ من ذلك يوضع نبات متسلق على الطريق ليحول دون مطاردة الموتى للناس. وعلى الرغم من كل ذلك فالموتى لا يحجزون، بل إنهم قريبون من الأحياء، حتى أن الأحياء قبل كل طعام يضعون للموتى قليلاً من الحبوب ويصبون قطرات من الشراب إلى جانب الموتى. ولا ينظفون الصحون من فضلات الطعام بعد العشاء ويتركونها لأرواح الموتى وإذا أهمل الأحياء واجباتهم نحو موتاهم انتشر المرض بينهم وحلت بهم المصائب. وتعتقد قبائل البولوكي وهي من القبائل البدائية في حوض الكونغو بأن الموت يحل بالإنسان بإرادة الإله أو بفعل ساحر أو بفعل الإنسان نفسه. فإذا غرق رجل بسبب غرق قاربه أثناء عاصفة فإن الموت هنا من عمل ساحر لأنهم يزعمون أن الحيوان لا يتعرض للقارب إلا إذا دفعته إلى ذلك روح شريرة. وعلى الكائن أن يكشف عن سبب الموت، فإذا قرر أنه بسبب سحر ساحر ينبغي حينئذٍ معرفة المجرم. وإذا كان الميت ذا مكانة تزين جثته وتكسى بالملابس الجميلة ويثبتونها بوضع أقرب ما يكون إلى الوضع الطبيعي. وإذا كان من الفقراء فيكتفي بلف الجثة بحصير، ويحفر القبر في البيت وتدفن الجثة خلال ثلاثة أيام. وكانت العادة قبلاً قتل اثنين من العبيد توضع جثة أحدهما عند رأس الميت وتوضع جثة الآخر عند قدميه. وكذلك يأتون بزوجة أحد الأقارب فيدفنونها مع جثة الميت إذا كان من الوجهاء. ويعتقد البولوكي أن هناك مكاناً في بقعة ما من الأرض تذهب إليه أرواح الموتى ويزعمون أن الحياة فيها لا تختلف عن حياة هذه الدنيا[1].

---

[1] طه الهاشمي: تاريخ الأديان وفلسفتها، ص 283- 284.

السحر والعرافة في جنوبي إفريقيا وفي وسطها

إن السحر والعرافة شائعان عند قبائل البانتو وقبيلة الهوتنتوت. ويعتقد الناس بأن السحرة والعرافين يمتازون بقوة خارقة وهبتهم القدرة على مزاولة السحر والتطبيب والكهانة. والكهانة عندهم خاصة بطبيعة معينة لا ينتمي إليها أحد إلا بعد اجتياز مراسم خاصة. ويستمد السحرة قوتهم في السحر من أرواح الأجداد، يتوسلون إليها بأن تمدهم بقوة من عندها وينشدون ويرقصون ويأخذهم الوجد، فيسقطون على الأرض مغشياً عليهم، وقد يؤدي ذلك إلى الموت. ومن واجبات السحرة مداواة الجرحى ومعالجة لدغ الثعابين والتماس النصر في القتال وإنزال المطر. أما واجبات الكهنة فإزالة السحر المضر والطلاسم. ويعتقد البولوكي بأن الساحر والكاهن أو المطبب يستطيع الامتثال بالأرواح ومخاطبتها، كما يعتقدون بأنه يستطيع فعلاً رؤية الأرواح التي فارقت أجسادهم. ويعيش الناس في فزع من الأرواح، ولا شيء يجعلهم في منجاة من أذاها غير إيمانهم بالساحر الذي يتحكم في الأرواح إلى حد القضاء عليها. لهذا لا يتردد الناس في تنفيذ ما يأمر به الساحر عن طيب خاطر، فيقطع جلده ويمتنع عمّا يحرمه الساحر باسم الآلهة ويدفع مقابل ذلك أجراً باهظاً.

وهناك أناس تخصصوا بأعمال السحر وهم يعرفون باسم المطببين أو ممارسي الطب عن طريق السحر، ويلقن هؤلاء علومهم إلى أتباعهم الذين يكونون في الأغلب أبناءهم. ويمارس الطب عن طريق السحر الرجال والنساء على السواء. ويمارس هؤلاء السحر الأسود أي السحر الضار، والسحر الأبيض الذي يعالج المرضى بالأدواء ويطرد الأرواح الخبيثة حتى يزول المرض والنحس. بينما يمارس السحر الأسود لتسليط الأرواح الخبيثة على شخص بغية أصابته بالأمراض والمصائب. ومن اختصاص السحرة معرفة أسباب المرض ومعرفة علاجه وحماية الناس من شرور الأرواح الخبيثة بالتعاويذ والطلاسم والأحجبة والتمائم. والتعاويذ من الأمور التي يعتقدون بأنها تجلب البركة، والطلاسم هي الأشياء التي تجلب لحاملها البركة والسعد، والأحجبة تحمي حاملها من الشر، أما التمائم فمواد من أي نوع كأن تكون صوراً أو قرن حيوان أو صدفة من الأصداف أو إناء تنسب إليها قوة خارقة اكتسبتها بسحر أودعه الساحر فيها.

ويعتقد البولوكي أن الأرواح الخبيثة على استعداد للإضرار بالناس، ولا يدخل أحدهم الغابة بعد الغروب خوفاً من أذاها، ولا يقل عن ذلك خوفهم من الأرواح التي تتقمص الأجساد[1].

ومما يدل على آثار الطوطمية في تلك القبائل أن اليوروبا والأشانتي يعتقدون أن هناك صلة وثيقة بين الإنسان والحيوان، لأنها تزعم أن لكل إنسان شبيهاً وقريباً من الحيوان. فإذا قتل حيوان، قتل في الوقت نفسه قرينه. وتتصور قبائل الأشانتي أن لبعض الحيوانات كالفيل والوعل روحاً خبيثة فإذا قتلها الصياد يقتضي ذلك أن يؤدي مراسم الجنازة تسكيناً لغضبها، كما أنها تحرّم قتل الأفعى لأنها مقدسة. وتسمي بعض قبائل اليوروبا نفسها بالكبش أو الفيل أو القرد، فهي تجعل لأجداد العشيرة صلة بحيوان معين. وزعمت الأسرة الحاكمة في داهومي (بنين) أنها انحدرت من أميرة واقعها نمر، فأصبح النمر شعار الأسرة الحاكمة، ووشم أفراد القبيلة أجسادهم بوشم صورة النمر[2].

الدين
في أواسط إفريقيا وإفريقيا الغربية

نعني بأواسط إفريقيا من حيث الدين: أعالي النيل وشمالي حوض نهر النيجر. ومن أهم القبائل الساكنة في هذه المنطقة قبائل الدنكا وقبائل أوبانجي وقبائل شاري وقبائل أخرى من جنوبي السودان ومالي. ولهذه القبائل معتقدات بالروح والنفس مما يدل على آثار الروحية. تزعم قبائل سارا الساكنة في أطراف بحيرة تشاد أن الروح تنطلق إلى جهة الغرب بعد الموت ولكنها تبقى في الوقت نفسه إلى جانب قبر صاحبها وتستقر في الأدعية الجنائزية التي تُرسم على وجوه الرجال والنساء. وتعتقد قبائل أوبانجي بأن النفس الآدمية تتركب من قوتين الأولى متحركة طاغية وشهوانية، والأخرى ساكنة راسخة تحد من طغيان الأولى وتحدث التوازن في طبيعة الإنسان. وتنطلق النفوس أثناء النوم على شبيهاتها من الأنفس فترقص وتعبث وتتزاوج، بيد أنها قد تقع حينئذٍ فريسة لأرواح الموتى فتحاول الهرب والعودة إلى جسد

---

[1] ليفي بريل: العقلية البدائية، ترجمة: د. محمد القصاص، القاهرة، ص 142.
[2] المرجع نفسه، ص 143.

صاحبها فينقبض في نومه كرباً وضيقاً، أما إذا وقعت فريسة في قبضة الأرواح الأخرى فإن صاحبها يموت، وإن أصابها جرح أصيب صاحبها بمرض. وتعتقد السارا بأن روح جد الأسرة يحل في أحد أحفاده. ومن معتقدات الأوبانجي أن أرواح الموتى تظل في المكان الذي مات فيه الشخص، فإذا مات غرقاً ظلت روحه على ضفة النهر. وترى قبائل الدنكا في أعالي النيل أن الموتى يفقدون قواهم كلما تقادم عليهم الزمن، إلا أنهم يعوضون عن ذلك برفع مراتبهم في عالم الأموات بفضل قدمهم. ومن معتقدات النوير في أعالي النيل أن من يموت في الأدغال أو تقتله الصاعقة ينال مرتبة ممتازة، إذ تعرج روحه إلى السماء وتتسلط على الأحياء، ويعتقد الأوبانجي أن لكل شجرة روحاً[1].

الأقــزام في إفريقيــا

للأقزام كائن أعلى يسمونه «مونجو» *Mungu* وآخرون يسمونه «توره» *Tore*. ويزعمون بأنه كوَّن جميع الأشياء، وكل شيء يرجع إليه، ولهذا تقدم إليه الضحايا وبكر المحصولات. ويرى توره كل شيء ويحس بكل شيء. ويلتمس الأقزام من كائنهم الأعلى مونجو الفوز بالصيد.

لقد شاهد الأب *Paul Schebesta* أن للأقزام اعتقاداً بنفوس تستطيع فعل الشر. فإذا وجد الشخص في الغابة وأصابه فزع أسندوا هذا الحادث إلى أنه صادف روحاً، فإذا عاد القزم إلى داره أشعل النار لطرد النفس الشريرة. ويعتقد الأقزام بأن الروح تترك الجسد بالموت، وتخرج الروح من الأنف وتذهب إلى الغابة، ويرون كثيراً من الأرواح تحيط بالموتى، فإذا كان الميت في حياته شريراً سارقاً أو قاتلاً فإن روحه تذهب إلى النار الواقعة تحت الأرض، أما الأخيار فيذهبون تواً إلى «مونجو». وعلى الرغم من هذا الاعتقاد فإن الأقزام ليست لهم فكرة واضحة عن العالم الآخر. ويفرق الأقزام بين العمل الحسن والعمل السيئ، ومن الأعمال السيئة القتل والسرقة والخسة ولعن الأولاد وإضرار الناس بالسحر الأسود. ومن يضرب أباه وأمه ومن يطلق زوجته ومن له علاقة جنسية ببنات عشيرته فهو «تابو».

---

[1] هوبير ديشان: الديانات في إفريقيا السوداء، مرجع سابق، ص 196.

وقد وجد الأب *Schebesta* آثار الطوطمية لدى جميع الأقزام الذين زارهم وإن كانت ضعيفة، وتختلف كثيراً عن طوطمية الأستراليين، ويرى أنهم اقتبسوها من الزنوج الذين اتصلوا بهم باستمرار. ويظن أن طوطمية الأقزام ليست ذات طابع ديني، وأن عادة الختان التي يطبقونها في حفلات الإرشاد (الاطّلاع على الأسرار) لا بد أنهم اقتبسوها من الزنوج. ووجد *Schebesta* عند أقزام الغابون علماً بخلق الكون، يعزونها إلى الكائن الأعلى ويشيرون إلى ذلك بقولهم: «قال الكائن الأعلى، فكان ما قاله».

دين الشعوب في إفريقيا الغربية

تتألف منطقة غرب إفريقيا من نيجيريا وغانا وداهومي (بنين) وتوجلاند (توغو) وساحل العاج وجمهورية ليبيريا وغينيا...

إن أهل هذه البلاد زنوج حقيقيون. والشعوب في هذه المنطقة تقدمت عندها المفاهيم الدينية وانتشرت فيها الوثنية. وكان لها تشكيلات من المعابد والكهنة، ومع ذلك فإن آثار الروحية وبعض آثار الطوطمية ما زالت موجودة وقد انتشر الإسلام في الأطراف الشمالية منها.

الاعتقاد بالروح والنفس

تسمي قبائل «دوجون» *Dogon* القوة الحيوية باسم «نياما» *Nyama* وهي قوة مختزنة في دم الشخص الحي ومن مظاهرها الحياة والبركة والكلام، وصفها أحد العلماء بأنها طاقة دائمة لاشعورية، موزعة بين الحيوان والنبات والأشياء التي تعمر أرجاء الطبيعة، ووظيفتها صيانة الجسد. وهي إما موقوتة فيه فيتعرض للموت، أو دائمة فيكتب له الخلود. والنياما تنتقل بالوراثة من الأب إلى ولده وتتضاعف في أثناء الحمل بالنياما الموروثة عن أحد الموتى من ذوي القربى. أما «النياما» عند قبائل «مندنج» *Mending* و«الكيلة» *Kele* وقبائل «البامبارا» *Bambara* فهي عبارة عن تيارات ضارة تصيب الإنسان وتلتصق به. ويتطلّب التطهر والبرء منها أدعية طويلة معقدة. أما قبائل «البامبارا» فتعتقد بوجود نسمة مزدوجة لكل إنسان، أولاً: النفس «ني» *Ni*، وثانياً: القرين «ديا» *Dya*. والنسمة «ني» تطلق على الزفير والشهيق وهي

التي تنطلق عندما ينام الإنسان. أما «ديا» فهي قرين الإنسان فإن كان ذكراً فقرينه أنثى وبالعكس. وهي الظل الذي يمتد على الأرض والخيال الذي ينعكس على صفحة الماء. والدم عندهم هو حامل الخصائص الروحية وناقلها. وللبصاق أيضاً عندهم قوة روحية. وعندما يموت الشخص تنفصم عنه نفساه فتذهب «ديا» إلى الماء وتلتحق بآلهة الماء، أما «ني» فتحل في محراب الأسرة. وتزعم قبائل الدوجون أن الروح تقيم في مسكن الميت حتى حفلة الذكرى الثانية للوفاة. فإذا تمت المراسم تنتقل إلى خارج القرية فتمنح قواها الحيوية «نياما» إلى مولود جديد فيها. فتضمن للقبيلة بذلك الاستمرار والبقاء. وأخيراً تتجه إلى الشمال إلى الجنة، حيث تتمتع بالخلود تحت ظلال الأشجار والنسيم العليل[1].

مراسم الجنازة والقرابين

يرتبط الأحياء بموتاهم في الأسرة والقبيلة برباط وثيق من الواجبات، فيجب عليهم قبل كل شيء أن يؤدّوا مراسم الجنازة ليسهّلوا للموتى رحلتهم الشاقة إلى دار الآخرة. كما يجب عليهم أن يقدموا القرابين وينحروا الضحايا حتى ينال الأحياء حماية موتاهم ويفوزوا برضائهم وحتى يتحاشوا غضبهم ولعناتهم. ثم يصونوا القوى الحيوية للموتى أنفسهم. إن مراسم الجنازة لدى قبائل «الدوجون» طويلة ومعقدة تتضمن بأن يقوم رئيس السحرة بزيارة الميت، ثم تتجمع النسوة حول مسكن الفقيد يولولن ويندبن. ويقوم رجال آخرون بإشعال سطح البيت، ثم تتلى تراتيل بلغة سرية، ويشترك الجميع في الرقص وفي حركات تشبه المبارزة أو مطاردة الصيد، ثم يحمل جثمان الميت ويدور به المشيعون يمنة ويسرة، وأخيراً ترفع الجثة لتوارى في مغارة منقورة في الصخر. وبعد أيام تبدأ مراسم الجنازة الثانية تحقيقاً للرحلة الأبدية من هذه الدنيا. ويُنصب عادة محراب لكل ميت في بيت الأسرة الأصلي، ويكون نحر الأضاحي سنوياً من بشائر المحصول الجديد، فإذا أكرم الأحياء موتاهم، أسبغ هؤلاء عليهم قواهم مقابل التكريم[2].

---

[1] هوبير ديشان: المرجع السابق، ص 197-198.

[2] المرجع نفسه، ص 199-200.

آثــار الطوطميـة

يقول «الدوجون» إن الحيوان قرين الإنسان، ويقابل كل جد من أجدادهم الثمانية جد سماوي يشترك مع هذا الجد في الروح، وبذلك يستطيع أن يظهر في هيئة قرينه من الحيوان، وكلما ولد مولود ولد معه صنوه من الحيوان الذي كان يعيش مع الأجداد، وصنو آخر من الحيوان المقابل له، ومن معتقداتهم أن أجدادهم تحولوا إلى أفاعي. وتزعم قبائل «مندنج» أنها تحت حماية بعض الحيوانات كالأفعى والتمساح والحرباء والسلحفاة والثعبان، والحيوان الخطر يحرّم عليهم النطق باسمه ولذلك يسمون التمساح ظبياً. وتصور قبيلة «المانجا» صلتها بالحيوان في تماثيل مختلفة. وفي ساحل غينيا يعتقد الناس أن كل الأشجار لها أرواح فإذا قطعت وجب تقديم القرابين لاسترضائها. وقد تبين لنا أن الشعوب المذكورة تكاد جميعها تعتقد في النفوس وفي قوتها واشتراكها في حياة الإنسان. وتراءت لنا آثار الروحية بارزة فيها. وكان من الطبيعي أن يكون للموتى وللأجداد والأسلاف حرمة لدى الناس، وتكون في بعض الجهات موضوع عبادة بالتوسل إليها وتقديم القرابين لاسترضائها، هذا إلى بعض آثار الطوطمية سواء في اعتقادهم بالحيوانات والنباتات أو تبجيلها لبعض الأحجار والصخور. وهناك بعض المظاهر الدينية تكاد تكون شائعة لديها على اختلاف تأخرها في الحضارة أو تقدمها مما يدل على عبادة الطبيعة نذكرها كما يلي:

عبـادة الأرض

إن الزنوج جميعاً وقسماً من البانتو يمارسون مهنة الزراعة، وكانت الأرض لدى جميع الشعوب الزراعية موضع تقديس واحترام وقد ألهها كثير من الشعوب وعبدها باسم الآلهة الأم لهذا لا غرابة إذا رأينا أن الزنوج قد جعلوا الأرض موضع تقديس وعبادة. وكما أن للأرض شأناً عند الشعوب الزراعية فكذلك للماء شأن عظيم إذ من دونه لا ينمو الزرع ولا ينضج، لذلك تقدس قبائل (لوبي) النهر وماءه، وتزعم أن الجن الأبيض يسكن مياه الأنهار. أما القبائل التي تزاول الزراعة وتسكن في المناطق الجافة كالدوجون والبمبارة فتعظم إله الماء والأنهار كثيراً، فإذا فاض النهر سارعت قبيلة (مندة) في سيراليون إلى تقديم القرابين له، ضارعين إليه أن

يروي أراضيهم، وتزعم قبائل (بامون وباملكه) أن الصخور العالية تمثل آلهة الأرض والماء. وتعتقد قبائل البمبارة بالعناصر الأربعة: الماء والهواء والتراب والنار. كما تعتقد قبائل الدوجون بأن الماء مكمل لقوة النار وليس ضداً لها، لأن النار تحدث بخار الماء الذي يرتفع إلى السماء، ثم يعود إلى الأرض بهيئة المطر. وتعتقد بعض عشائر قبائل الدنكا في أعالي النيل أن النار من أجدادهم، لذلك حرموا إطفاءها، كما أن بعض القبائل تعتقد أن الماء جدهم.

الاعتقاد بالكائن الأعلى

يبدو أن جميع شعوب إفريقيا تعتقد بوجود إله متعال خالق للكون، إلا أنها تختلف في تقدير سلطانه في أمور الدنيا. والفكرة السائدة بينهم هي أن هذا الإله بعيدٌ جداً عن العالم، حيث يصعب على الناس الاتصال به. والأحرى أن توجه العبادة إلى من دونه من الآلهة. إن أحط القبائل البدائية في إفريقيا هي البوشمن والهوتنتوت، حيث يعتقد الناس بوجود كائن أعلى اسمه: «كاآنج» ***Kaang*** يسكن السماء وهو خالق الحيوان ومُنزل الغيث ومانح الحياة ولا يُرى. ويتضرع أقزام «نكولاوتكو» إلى الكائن الأعلى «نزامبي» ***Nzambi*** وهو بنظرهم خالق السماء والنجوم. ويعتقد الأقزام بوجه عام أن الكائن الأعلى بعيد كل البعد عنهم، لا يعنيه شيء، يتقربون إليه ببواكير الصيد وبشائر الفاكهة[1].

الآلهة الثانوية

إن الشعوب الإفريقية التي تقدمت في الحضارة تعتقد بآلهة ثانوية إلى جانب الكائن الأعلى، أو الإله الأعظم، وتزعم أن الكائن الأعلى أوكل إليها تصريف شؤون العالم. ويختلف عدد الآلهة هذه تبعاً للبلاد والمقاطعات. فالشعوب السودانية في أعالي النيل تجعل أجدادهم الأسطوريين أو أبطالهم المؤسسين لحضارتهم آلهة ثانوية. فلدى قبائل «لوبي» مثلاً يوجد عشرون إلهاً ثانوياً يختص كل منهم بمهمة كحماية الناس من المرض ومن اللصوص، ومنح العقل والخصوبة ووفرة الغلة... إلخ. ويكثر الاعتقاد بالآلهة الثانوية في خليج غينيا. وتختلف أسماؤهم باختلاف القبائل.

---

[1] هوبير ديشان: المرجع السابق، ص 201.

الاعتقاد بالجن

يكاد الاعتقاد بالجن أن يكون عاماً لدى الشعوب البدائية في إفريقيا ويسمونه «جن الغاب» ومنه ما يصعب تمييزه عن الآلهة الثانوية ومنه ما يشبه الإنسان والحيوان ولكن بملامح مخيفة ولها رؤوس ضخمة. فقبائل الدوجون تسمي جماعة من الجن باسم: «يبان» ***Yeban*** ويتصورونها بهيئة مخلوقات صغيرة الجسد مخيفة ولها رؤوس ضخمة تسكن الكهوف والأكمات. وتتصور قبائل الأشانتي الجن أن لها قدماً في أعلى الرأس وساقاً معكوسة، وكلامها الصفير، يستخدمها المطببون في معالجة المرض. أما قبائل السارا فتعتقد بمردة تسمى «سو» ***Su*** وتزعم أنها عاصرت الكائن الأعلى قبل الخلق. أما قبائل الأوبانجي فتعتقد بحشد من الجنيات وهي أرواح شريرة تجتمع ليلاً لتغتال نفوس الناس ولها صوت كمواء القطط وتستطيع أن تحل في الأجساد ولا تطردها إلا حفلات الزار. وتتصور أن جن الماء أبيض اللون تقدم إليه الدجاج الأبيض والبيض والذرة[1].

المعابد والعبادة

تتميز معابد الزنوج بأشكالها المختلفة، وقد تختلف من قبيلة إلى أخرى، فمعابد قبائل الدوجون بعضها دور مربعة الشكل، مزينة بنقوش وصور رمزية، وبعضها ذات أبراج عالية، وبعضها تطل جبهته على حافة صخرة منقورة وضع في داخلها المحاريب والمذابح، وهي حجارة مقعرة أو مخروطية الشكل. يضاف إلى ذلك أن بيت رب الأسرة نفسه يعتبر معبداً. ولقبائل لوبي مذبح أمام كل بيت، وقد يكون على سطح البيت. وتوجد عند الأقوام القاطنة في سواحل خليج غينيا معابد صغيرة لكل إله. وهناك معابد كبيرة تبنى من الطين وتزين بنقوش مختلفة الألوان. وتوجد مذابح صغيرة في المزارع أو في الغابات المقدسة أو في الأكواخ ويحتوي كل معبد على أدوات متنوعة. ففي معبد إله الجدي أنواع من الجلود والعظام وأوراق من شجر معين وتراب من مكان معين. أما في دائرة قبائل الأشانتي فتوجد أوانٍ من نحاس أو سلال تحتوي قطعاً من الحجر والأسنان والقرون. وفي أديرة داهومي (بنين) توجد صور

---

[1] المرجع سابق، ص **204**.

منحوتة لوجوه لا يرفع عنها الستار. ولقبائل أعالي النيل معبد لآلهتهم الثانوية، والمعبد عبارة عن كوخ. أما العبادة فتتلخص بالدعاء وتقديم القرابين وذبح الذبائح، والقربان عبارة عن صب الخمر على المذبح أو سكب خبيصة الذرة وصبغ المذبح بدم الضحية. والغرض من نحر الضحايا هو استعادة القوى الحيوية. والموت في عرف الدوجون يطلق القوى الحيوية للأموات ويشتتها ويحدث اختلالاً في توازن القوى. وهناك عبادات يومية أو موسمية لدى مختلف القبائل يعبدون فيها الأجداد والملوك والموتى. وكذلك تقام شعائر لاستقبال العام الجديد وتوديع العام القديم والطقوس الزراعية عند قبائل البامبارا كثيرة، أما العبادة عند قبائل «مالي» فتجري على أساس محلي هو الأسرة والقرية من دون حاجة إلى كاهن، وتقدم قبائل «مندة» القرابين في زمن الحرث والبذار والحصاد... إلخ[1].

الكهانة

إن الكهانة من مقتضيات العبادة لدى الزنوج القاطنين على سواحل خليج غينيا في إفريقيا الغربية، وإن رب الأسرة في بعض القبائل هو الذي يقوم بإقامة الشعائر الدينية، وتتميز العبادة في تلك الأنحاء بوجود الكهنوت والجمعيات الدينية للآلهة، فلكل إله كهنوت خاص به، تقدم للكاهن الهدايا المتنوعة كالماعز والدجاج والزيت وخمرة الذرة أو غيرها من الخمور والأقمشة ولكل إله يوم خاص يعبد فيه. ولا يجيب الإله على سؤال سائل إلا بلسان كاهنه، أو في المعابد البيتية يقيم الصلاة الأكبر سناً وهو عاري الكتفين رمزاً للتبجيل والتعظيم، وتتبين موهبة الرجل للكهانة وهو في سن مبكرة، ويستمر في مهنته الدينية مدى حياته. وغالباً ما يكون للكاهن مهنة أخرى كالصيد أو الحدادة أو العرافة أو بيع التمائم، إذ إن لكل إله تمائمه وملحقاته الخاصة. وفي داهومي يلقبون الكاهن باسم حارس المقدسات. والكهانة إما أن تكون وراثية، وإما تدل عليها ظواهر مس الجن. والكاهن هو أمين الصدقات والنذور. وقد تستغرق مدة التدريب على الكهانة من سنتين إلى ثلاث سنوات يطلب من المريد مراعاة العفة التامة والامتناع عن شرب

---

[1] طه الهاشمي: تاريخ الأديان وفلسفتها، مرجع سابق، ص 301-303.

الخمر والشره في الطعام أو الاشتباك في شجار. ويعيش المريدون في رعاية كاهن ويلقنون في السنة الأولى شعائر التطهر وينزوون في الغابات المشحونة بالأشباح والأطياف، وفي السنة الثانية يتعلّمون الكلام والتمائم والمحرمات (تابو) الدينية، وفي الثالثة العرافة والكهانة. ويقوم الكاهن بخدمة بيت الإله (معبده) وتقديم طعامه من النذور والقرابين والأضحيات، كما أنه يعتبر لسان الإله، وهو وحده الذي يعبّر عن إرادته بصوت خاص[1].

الجمعيات الدينية

توجد الجمعيات الدينية في غربي إفريقيا وفي وسطها وكذلك في إفريقيا الاستوائية، وتسمى بأسماء مؤسسيها أو أسماء أخرى. وتلعب الجمعيات الدينية دوراً مهماً في الحياة السياسية والتقاليد الموروثة لدى القبائل وتحافظ على الأعراف الاجتماعية والأساطير وتتخذ المقررات السياسية وتنظم العمل وتقيم العدالة في القبيلة.

يختص الأعضاء ذوو المراتب الدينية الرفيعة فيها بمعرفة نظام الكون والرموز المقدسة. وفي قبائل البامبارا تتألف الجمعية من جميع المراهقين المختونين في القرية الذين يتولون حراسة المعبد وإدارة شؤون التراث القبلي ومعبدها الكبير.

---

[1] المرجع السابق، ص 305 - 306.